مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10 / العـدد: 01 (2022)، ص 1303 -1323

الخطاب البيوايتيقي والتغيرات الاجتماعية في ظل الرهانات البيوتكنولوجية المعاصرة

Bioethical discours and social changes in light of contemporary biotechnologie

أحمد شوال[1]، هشام شراد[2]،

[1] جامعة محمد الأمين دباغين سطيف-2- (الجزائر)

ahmed.choual07@gmail.com

[2] جامعة محمد الأمين دباغين سطيف-2- (الجزائر)

cherrad.hichem@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/06 تاريخ القبول: 2022/01/09 تاريخ النشر:2022/01/23

ملخص:

سنعالج في هذا المقال التحليلي التغيرات الكبيرة التي عرفتها الأسرة والمجتمع في ظل تطورات البيوتكنولوجيا المعاصرة، والتي تتعلق بمقاربات ومفاهيم نظرية في ظل الأخلاق التطبيقية. التحليل الأولي يطلعنا على نموذج الفصل بين القيمة والمعرفة، وذلك لأسباب ترتبط بالنموذج الحداثي ، الذي سيطرت عليه النظرة العلمية الوضعية ، التي جعلت من الجانب المادي أساس اهتماماتها، وهو ما جعل الممارسات البيوتكنولوجيا (الخارطة الجينية- الاستنساخ – النسالة – استئجارا لأرحام ...) تؤثر على الأسرة بجميع مكوناتها، وتفقدها قيمتها الخلقية ، وامتد ذلك إلى المجتمع باعتبار أن الأسرة هي نواته ، وهو الأمر الذي جعل فلاسفة "ما بعد الحداثة" (فرانسوا داغوني – يورغان هابرماس – هانس يوناس...) يتطرقون إلى هذه التحولات الخطيرة وأثرها على الفرد ، الأسرة والمجتمع ، وذلك في ظل البيوإيتيقا، كمحاولة لتهذيب تلك الممارسات البيوتكنولوجية ، لكن مع ذلك تبقى المحاولات متباينة والرهانات التي تواجه الأسرة والمجتمع قوية .

الكلمات المفتاح: أسرة؛ مجتمع؛ بيوتكنولوجيا معاصرة؛ ممارسات بيوتكنولوجية؛ بيوإيتيقا.

Abstract:

Through our intervention that relates to theoretical approaches and concepts about family and social change, we will try to discuss the relationship between family and contemporary biotechnology under applied ethics. The preliminary analysis informs us about the model of separating value and knowledge, for reasons related to the modernist model, in which the positive scientific outlook dominated, which made the material aspect the basis of its interests, which made biotechnology practices (genetic map - cloning –eugenic - lint-wombs ...) affect the family with all its components, and loses its moral values, and this extended to society, which made postmodern philosophers (François Dagognet – Jürgen Habermas - Hans Jonas ...) focus on these dangerous transformations and their impact on the individual, the family and society in the light of the biotechnology, as an attempt to refine these bioethics, that the stakes facing the family and society are strong.

Keywords: Family; society; contemporary biotechnology; biotechnological practices ; bioethics.

المؤلف المرسل: شوال أحمد

1. مقدمة :

يعيش المجتمع الإنساني اليوم تحولات انثروبولوجية حقيقية ،كان الاعتقاد السائد فيها أنها ستنقله إلى مستويات أعلى من الرقي والتقدم في كل مجالات الحياة، لكن ذلك سرعان ما تهاوى، وبدأت فكرة جديدة تلوح في فكر الفلاسفة وانجازات العلماء، وهي نهاية الإنسان بالمفهوم الكلاسيكي، فتلاشت

معها فكره المقدس، وكانت بدايتها الاهتمام بالجانب المادي من الإنسان (الجسد)، وهي فكرة اقرها النموذج الحداثي الذي أرست معالمه النزعة الوضعية العلمية (المادية)، ومعها تم تغيير الجانب المقدس الذي كان محصورا في العقل والروح بالجانب المادي المتمثل في الجسد، ووصل الأمر إلى ابعد من ذلك، حيث تم تشييد معبدا خاصا لهذه المرحلة، ميدانها المخابر العلمية، موضوعها الجسد، ووسائلها الممارسات البيوتكنولوجية.

مع هذا التحول العلمي والتكنولوجي الحداثي أصبحت النظرة المادية فيه تمثل أولوية الاهتمامات العلمية، والجسد الذي كانت ترد إليه كل الغرائز الحيوانية أصبح موضوع اهتمام العلماء والباحثين في ميدان البيولوجيا، وأصبح الإنسان مجرد ظاهرة طبيعية تجرى عليها التجارب كغيرها من الظواهر الطبيعية الأخرى، ومع تطور الاكتشافات العلمية والتكنولوجية، أصبح علم الوراثة عموما، والبيوتكنولوجيا المعاصرة خصوصا يمثلان تحديا مشوقا ومثيرا، وأحيانا مخيفا، نتيجة المآلات التي أفضت إليها، في ما يتعلق منها بالإنسان كفرد، وما يتعلق بالبيئة التي يعيش فيها، ونخص بها الأسرة بكل مكوناتها وامتداداتها (المجتمع)، لأن الأمور تجاوزت توقعات العلماء أنفسهم، وأصبح مستقبل الإنسان والأجيال المقبلة مرهونا بين أيدي العلماء، مما جعل البيوتكنولوجيا المعاصرة تثير أطماع العلماء أنفسهم إلى حد فك لغز الحياة، وهي المسائل التي أصبح الكلام عنها ممكنا في ظل الاستنساخ، النسالة، استئجار الأرحام، الخارطة الجينية... وغيرها من الممارسات البيوتكنولوجية التي فتحت المجال على علم الخيال في صنع إنسان آلي، وحتى آلة إنسان، أو خلق بيئة جنينية اصطناعية يولد فيها الإنسان خارج رحم الأم.

إن موضوع هذه المساءلة التحليلية حول التغيرات الاجتماعية (الأسرة والمجتمع) التي ألحقتها البيوتكنولوجيا المعاصرة في ظل هيمنة نموذج الفصل بين القيمة والمعرفة، سنحاول من خلالها الكشف عن الخطاب البيوايتيقي ومدى

مسايرته للقيم الإنسانية، ومحاولة الخطاب الفلسفي المعاصر معالجة هذه المسألة.

إن أهمية هذا الموضوع تأتي من خلال راهن البيوتكنولوجيا المعاصرة التي تعدت دورها وانخرطت في سياق تشكيل رواية جديدة تعكس في مضمونها مفهوما مخصوصا عن الإنسان الذي أصبح كائنا نرجسيا غرائزيا، احتجبت من خلالها المعالم الأخلاقية، وخرجت الأمور من مجرد أفكار إلى حقائق علمية.

كما تحفزنا أهمية هذا الموضوع إلى رصد الأهداف المتوخاة من ملامسة إشكالية العلاقة الممزقة بين البيوتكنولوجيا المعاصرة والأسرة والمجتمع، ومحاولة بلورة أخلاقيات حاكمة للبيوتكنولوجيا المعاصرة والممارسات البيوتكنولوجية في حالة ما إذا أردنا إعطاء معنى صحيح للأسرة والمجتمع، وهذه الأهداف نجليها فيما يلي:

- مفهوم البيوإتيقا في ظل الأخلاق التطبيقية
- موقف "يورغان هابرماس" من الممارسات البيوتكنولوجية المعاصرة على الأسرة والمجتمع
- اثأر البيوتكنولوجيا المعاصرة على الأسرة والمجتمع
- الأسرة ورهانات البيوتكنولوجيا المعاصرة

الإشكالية هي: هل بإمكان الخطاب البيوايتيقي المعاصر أن يحافظ على القيم الأخلاقية للأسرة والمجتمع في ظل الرهانات البيوتكنولوجية المعاصرة؟

2 مفهوم البيوإيتيقا في ظل الأخلاق التطبيقية

ورد مصطلح "بيوإيتيقا" تزامنا مع التطور الكبير الذي عرفته البيولوجيا المعاصرة، فأصبحت الضرورة ملحة لوضع فكر أخلاقي تطبيقي يساير تلك الممارسات الطبية والبيولوجية، وكان الاعتقاد أن البيوإيتيقا هي علم البقاء أو الاستمرار على قيد الحياة، وهو علم يرمي إلى إقامة تحالف بين علوم الحياة

(BIO) والقيم الإنسانية والقواعد الأخلاقية (ETHICS). (بوفتاس، 2001، صفحة 13)، لقد وردت تعاريف متعددة لمعنى البيوإيتيقا فيعرفها "غي دوران": " أنها البحث عن جملة المطالب لاحترام الإنسانية والشخص وتقدمهما في القطاع الحيوي-الطبي. (روس، 2001، صفحة 110)

إذا كانت البيوتكنولوجيا أسعدت الإنسانية والعلماء بما حققته من اكتشافات وانتصارات فقد فتحت أمامهم مخاوف ومتاهات، وتسببت في صراعات، كان لزاما على الخطاب الفلسفي "ما بعد الحداثة"، أن يوقظ الأذهان إلى ضرورة تبني معرفة جديدة ذات جينيالوجيا إيتيقية وأصول إستتيقية وضوابط ابستيمية حتى يعود الإنسان إلى جادة الصواب ويلتزم بحياة أضاعها في زحمة الآلات والمخابر.

أول من استعمل كلمة بيوإيتيقا هو العالم الأمريكي " فان بوتر رينسلايير" سنة 1970، وفي اعتقاده، البيوإيتيقا تشكل مقاربة جديدة لأخلاقيات الطب بشكل خاص، والأخلاقيات التطبيقية بشكل عام.

أما العالم " أندري هليغرز" فيرى أن البيوإيتيقا تشكل استمرارية الطب الكلاسيكية وأفضل مصطلح يناسبها هو أخلاقيات الطب (Ethique médicale).

ويعود الفضل إلى العالم "جوزيف فلتشر" الذي أخرج هذا الموضوع إلى مجالات الدراسات الجامعية، " من خلال كتابه الشهير (الأخلاق والطب) الذي صدر سنة 1994، فتحول الموضوع إلى مشروع عالمي يناقش في مقالات ومؤلفات انتهت إلى إنشاء لجان الأخلاقيات التي ساهمت في سن القوانين العالمية، وبعدها تم دمج المعارف البيولوجية والقيم الإنسانية، واستعمال المعارف البيولوجية

بمعناها الشمولي الذي يتضمن إضافة إلى العلوم الطبيعية علم الوراثة وعلم البيئة.

لقد ربط "بوتر" هذا الدمج والمسؤولية التي يجب أن يتعلمها العلماء حاضرا ومستقبلا، وكان هدف مشروعه هو: الحفاظ على الجنس البشري، وذلك عن طريق حوار بين العلوم البيولوجية والعلوم الإنسانية (مشروع ذو طابع بيئي شمولي).

كما سلط "بوتر" الضوء على مسؤولية العلماء في مجالي الطب والبيولوجيا، وفي نظره الثورة العلمية والتكنولوجية عرفت توجها بيولوجيا مذهلا مما جعل هذا التقدم يهدد البشرية جمعاء، فالضرورة أصبحت تتطلب فكرا أخلاقيا جديدا يتمحور حول مبدأ المسؤولية، وهي الفكرة التي أخذ بها كل من العالم البلجيكي "جيلبر هوتوا" والعالم الأمريكي "ليون كاس" هذا الأخير صرح قائلا:<<... العلم في إطار ثورة الطب والبيولوجيا لم ينحصر تأثيره في تغيير طريقة تفكير الإنسان، بل أصبح بمقدوره بناء إنسان وتغيير طبيعته ذاتها، لذلك يجب بناء قيم جديدة تقوم على مبدأ المسؤولية، وإعادة طرح القضايا المتعلقة بالماهية والوجود والكرامة الإنسانية على ضوء مبدأ المسؤولية. (Kass, 2007, p. 36)

تطرح أخلاقيات الطب والبيولوجيا (البيوإيتيقا) رهانات متعددة، منها ما هي: أخلاقية، قانونية، حقوقية وفلسفية، ولعل أبرز هذه الرهانات: الرهان الفلسفي باعتبار أن البيوإيتيقا هي قبل كل شيء فلسفة قيم، فيصبح من السهل للفكر الفلسفي الولوج إلى عالم البيولوجيا عن طريق بوابة الأخلاق، خاصة إذا علمنا أن المسألة التي تنقص الممارسات البيوتكنولوجيا هي القيم الأخلاقية، وما يساعد على أخلقة هذه الممارسات هو تنوع أراء الفلاسفة، مما يسمح لهم ضبط المسألة من زوايا مختلفة، كذلك أعمال وممارسات العلماء والأطباء والباحثين

كثيرا ما تستدعي التأمل الفلسفي، لما يتعلق الأمر بمواضيع موت الإنسان وحياته ووجوده ومصيره. (عبادي، 2012، صفحة 126)

3 موقف "يورغان هابرماس" من الممارسات البيوتكنولوجية المعاصرة على الأسرة والمجتمع

سنتطرق في بحثنا هذا إلى نموذج فلسفي من فلاسفة "ما بعد الحداثة"، وهو الوريث الشرعي لمدرسة "فرانكفورت" "يورغان هابرماس".

تعود الرؤية النقدية للعقل الغربي إلى مدرسة "فرانكفورت" التي انتقدت التعامل مع العقل كأداة. (هابرماس، 1995، صفحة 482) لقد وصف "هابرماس" العقل الأداتي بوصفه دليلا على ظاهرة التمركز حول العقل التقني التي أرساها المجتمع الحديث.. (هابرماس، التقنة والعلم كإديولوجيا، 1999، صفحة 88)، كان هدف "هابرماس" هو تبني الأخلاق التواصلية بدلا من الأخلاق الاداتية، ولتحقيق ذلك أراد إقرار إطار عام لكل ممارسة بيولوجية حدده في "السياسة البيولوجية"، فأراد كشف الغطاء عن الوهم العلموي والتقنوي وواصل الدفاع عن أطروحة "ماركيوز " الاداتية، فهو يرى أن الإنسان بات خاضعا لجهاز تقني، وفي نظره الفلسفة مؤهلة للنظر في التداعيات التي ألحقتها البيوتكنولوجيا بالإنسان فنظرتها نقدية وفهمها عقلاني.

الأخلاق التواصلية عند "هابرماس" تبدأ من خلال الفعل التواصلي من أجل تحرير الوعي من الأطروحات التقليدية، وأهم ما كان يسعى إليه هو تحرير الاتصال الإنساني من قبضة العقل الأداتي والتشيئ، لأن الفعل التواصلي يتطلب المحاجة والمناقشة النقدية.

إن أراء "هابرماس" السابقة تطلعنا على موقفه من موضوع البيوإيتيقا، فيبدو تخوفه واضحا في الحذر بين الطبيعي في الإنسان والمعالج الذي قد يؤدي إلى

خلق تشويش في فكرنا البيوتيقي عن أنفسنا <<ربما ما يجب على الإنسان عمله كي لا يفسد حياته، يطرح ذلك خلفية تناقض مع سؤال متأخر، وهو سؤال يطرح لدي الجدل الذي تثيره التقنية الوراثية: "هل يحق للفلسفة أن تدافع عن التحفظ نفسه تجاه المسائلة المطروحة في أخلاقيات النوع الإنساني أم الجنس البشري؟؟ (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية، نحو نسالة ليبيرالية، 2010، صفحة 07)

لقد تناول "هابرماس" المسألة من زاوية فلسفية أخلاقية، يمكن أن نلتمسها من خلال إشكالية التداخل بين التقنية والبيولوجيا، فتزاوجهما يولد " البيوتقنية" وهو مسار موصلنا لا محالة إلى إشكالية جديدة وهي البيوإيتيقا.

في نظر "هابرماس" الممارسات البيوتكنولوجية منها ما يفيد، فمثلا الهندسة الوراثية مفيدة، وإصلاح خلايا وأجنة مشوهة يعد تدخلا إيجابيا، لذلك بات من الضروري إعادة تقييم كل التقنيات البيولوجية المعاصرة، ومسايرتها لما يخدم الإنسان مثلما كان الأمر في الاكتشافات في المجال الزراعي الصناعي.

إن أهم موضوع اهتم به "هابرماس" هو فكرة تحسين النسل، التي تعد من أكبر الرهانات المرتبطة بتطور أبحاث الهندسة الوراثية وتداعياتها المستقبلية على الإنسان، وهي تقنية طبية للمواليد وكيفية تناسل جديدة قد تحدث تصادما بين حرية الآباء وحرية الأطفال مستقبلا، وكذلك هي تقنية تسمح بالولوج في العالم البيولوجي الخاص بالإنسان وتعديله بالكيفية التي يريدها أصحابها.

لقد كان قلق "هابرماس" مشروعا لما وصلت إليه البيوتكنولوجيا المعاصرة من تطورات في الهندسة الوراثية وتقنية الأرحام المصطنعة، فيتحول الإنسان من كائن طبيعي إلى كائن ثقافي، <<... وبالفعل فإن غيظ الإنسان يتمرد، والذي ييأس من أن يكون هو نفسه، له غيظ موجه ضد شخص آخر، وبالمقابل فإن ما ليس عليه أي مأخذ، نحن الأشخاص القادرون عن الكلام والفعل، فنحن مرتبطون

بقلقنا بعد النجاح كما نأمل، وأنه ليس بمقدورنا إلا الانطلاق من مقدمات ما بعد ميتافيزيقية مع الله في الزمان. (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية، نحو نسالة ليبيرالية، 2010، صفحة 18)

إن التدخل في الجينوم وطاقمه الوراثي سيغير من جوهر الإنسان، فيمكن زرع أجهزة ثانوية متطورة فينتج عن ذلك عدة فوارق بين الخلق العضوي والإنتاج التقني، أي ما هو حي وما هو مصطنع، ولذلك يرى "هابرماس" أن ما يعنيه العلم تقنيا بتصرفنا يجب أن يكون خاضعا لرقابة أخلاقية تجعلنا بالمقابل ولأسباب معيارية غير قادرين على التصرف بها على هوانا.." (هابرماس، مستقبل الطبيعة البشرية، نحو نسالة ليبيرالية، 2010، صفحة 23)

في نظر "هابرماس" الهندسة الوراثية لا تنطلق من الشخص كشخص، وإنما من الواقع البيولوجي للجسد انطلاقا من أعضائه وخلاياه ونسيجه الخلوي، ثم من وظائف تقوم بها، ليتوجه بعد ذلك إلى تخزين النطاف أو الأجنة في بنوك الخلايا التي قد تصلح لإنتاج قطع غيار منفصلة عن الجسد.

ما يهم في فلسفة التواصل النقدية عند "هابرماس" هو ما يعيق التواصل بين الأب المبرمج والابن المبرمج، أو أن يشعر الأب أنه خلق نسخة مطابقة، أو أن يشعر الابن مستقبلا أنه يخضع لبرنامج تم اختياره، فهو عديم الإرادة وعديم الحرية، تم تحقيقه في يوم مضى بإرادة وحرية من سبقه؛ مجتمع بأكمله، اشترك فيه الوالدان، والطبيب والسلطة السياسية، ولأجل ذلك كله يجب إعادة تقييم الهندسة الوراثة والاستنساخ والإخصاب الصناعي وغيرها من التقنيات البيولوجية المعاصرة، والنظر إلى البيوتكنولوجيا على أنها مجرد تمديدات ذكية للتطور ذاته، والهندسة الوراثية والمعلوماتية هي بدورها وسائل جديدة لمجتمع إنساني جديد يتطلب قيما جديدة .

4آثار البيوتكنولوجيا المعاصرة على الأسرة والمجتمع.

الأسرة بالمفهوم المراد لها وما تحمله من قيم باتت أكبر رهانات البيوتكنولوجيا المعاصرة، لأن العلماء والفلاسفة أدركوا في آخر الأمر أن أول من تهدده هذه الاكتشافات البيوتكنولوجية هو الإنسان، وهو ما أطلعتنا عليه العديد من الاتجاهات الفلسفية المعاصرة في أكثر من مجال عن نهاية الإنسان، أو بلغة أخرى موت الإنسان، وأصبح ذلك متداولا في جميع حقول المعرفة مجازا، فيكون الإنسان قد بلغ بذلك عصرا جديدا يعبر عن نهاية عصر اتسم فيه الفكر بخصائص معينة ليقوم على أنقاضه فكر آخر يقدم إجابات على أسئلة عالقة.." (الزين، 2002، صفحة 119) إنها نهاية و موت الإنسان، أو لنقل الكاسحة << وهذا التقارب بين هذه الألفاظ الثلاثة أصبحت كلها تدل على نهاية تحول جوهري كامل..." (المسيري، 2001، صفحة 159) ، فاكتشاف "فرويد" لفرضية اللاشعور (اللاوعي) وعلاقتها بموت الإنسان كذات واعية، لم يعد الأنا سيدا في بيته، ثم اكتشاف "دوركهايم" العقل الجمعي أعلن به موت الفرد، والإنسان كيان اجتماعي، والفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو" الذي كشف لنا علاقة اللامفكر فيه بموت الإنسان كذات فاعلة... فنهاية الإنسان جعلت منه موضوعا من موضوعات المعرفة العلمية لترفع من مجاله المادي (الجسد) الذي أصبح المادة الأساسية للدراسات البيولوجية، ومعها تم إعلان موت الإنسان كذات إنسانية فقدت معها كل المعاني الجوهرية كالقدسية، الحرية، الكرامة والوعي.

إن الكلام عن الإنسان يضعنا أمام مفارقة هي: من هو الإنسان الذي مات؟ ومن الإنسان الذي ولد؟ أو ما الذي مات فيه؟ وما الذي ولد فيه من جديد؟

إن أول رصاصة أصابت الإنسان كذات هي تلك التي أطلقها العالم البيولوجي "تشارلز دارون" في القرن 19 حين جعل الإنسان موضوعا للعلم والمعرفة، فلم يعد النظر إليه كذات عارفة، وإنما هو كائن متطور، يمكن رصد كل

مراحل تطوره والتحكم فيها وتغييرها كأي ظاهرة طبيعية أخرى، لقد جسدت مقولة "فرانسيس فوكوياما" الشهيرة:<<نهاية الإنسان المؤنسن>> تطورا حقيقيا لواقع الأزمة التي وصل إليها الإنسان المعاصر، فهي النهاية المعرفية والرمزية للإنسان، وظهور البيوتكنولوجيا المعاصرة لم تكن طبيعية بل كانت قيصرية، فجهزت على مخترعها وجعلته يفقد القدر الضئيل من الهوية التي بقيت له، ويفقد مركزيته وسيادته بل وحتى قدسيته، فكان ذلك نهاية الإنسان الوصي وولادة الإنسان الوسيط " ...الذي لا يعتبر نفسه أفضل من الكائنات الحية، فهو يعيش وسط الطبيعة وهو جزء منها ومجاور لها، والذي تقوم علاقاته على اختراع الوسائط و خلق الأوساط من أجل التواصل و التعايش..." (حرب، 2005، صفحة 64)

فها هي الطبيعة امتلكت الإنسان وأدخلته في قاموس أشيائها، ليصبح شيئا أو ظاهرة ينظر إليه في أبسط صورة، وها هي قدسية الحياة تتلاشى ويخرج الإنسان عن صفات التجلي الروحي والنور والحكمة الإلهية التي تبجح بها وقتا طويلا " ...والمعرفة العلمية التي سخرت لفهم الطبيعة والتحكم فيها، تم استخدامها للتحكم في الإنسان" (مصدق، 2004)، فأصبح الإنسان مجرد كائن بيولوجي، أضيفت إليه طاقات وقوى تعوزه بحكم بنيته البيولوجية، لتصبح هذه التكنولوجيا قادرة على تحويل بنيته البيولوجية ذاتها وتخلصها من القيود، وتجعل منها قوة خارقة، ومشروع الجينوم البشري أكبر دليل على ذلك،"... فالرهان يدعونا إلى النظر في علاقاتنا بمشكل الإنسان أكثر من أي وقت مضى، إن الإنسان كما فسر "كانط" موضوع لكل إنشاء، وهذا الموضوع ليس متعاليا بل هو اليوم وراثي، إن الإنسان قد فهم في آخر الأمر أنه جينوم خريطة وراثية وليس ذاتا متعالية. (المسكيني، 2005، صفحة 46)

إن القلق أصبح متزايدا والهندسة الوراثية زادت من توجس الفلاسفة والعلماء على حد سواء، وهو ما حذر منه "فرانسيس فوكوياما" في مشروعه الجديد حول بداية تاريخ جديد لما بعد الإنسان قائلا:".. إن هدفي هو أن أبين أن "هوكسلي" كان على حق أن أخطر ما تهددنا به البيوتكنولوجيا المعاصرة هو احتمال أن تتغير الطبيعة البشرية، ثم تدفع بنا إلى ما بعد البشرية من التاريخ...." (فوكوياما، 2002، صفحة 31)

فأصبح الإنسان المقدس موضوع روايات الخيال العلمي، كعالم جديد شجاع "أدولس هوكسلي"، و"فرانكينشتاين" (ماري شللي)، و الشرطي الآلي "بول فيرهوفن"، و مسرحية الإنسان الآلي "كاريل شابيك" وهي كلها أعمال مستوحاة من التلاعب البيوتكنولوجي، لكنها تحذرنا في نفس الوقت من مجالات الهندسة الوراثية والاستنساخ وغيرها من الممارسات البيوتكنولوجية التي أصبحت تعكس يوتوبيا جديدة تحلم بإنسانية غامضة، تلغى فيها الفردية وكذلك الغيرية، وقد تصل بالإنسانية إلى صدام نتيجة القضاء على الإنسان بما يحمله من قيم دينية، أخلاقية وقانونية. (الشقوري، 2000، صفحة 32)

5 الأسرة ورهانات البيوتكنولوجيا المعاصرة: في ظل الاكتشافات البيوتكنولوجية المعاصرة، كان اكتشاف الإخصاب الصناعي انجازا بيولوجيا كبيرا لأنّه حلّ مشكلات العقم التي عانت منها المجتمعات الإنسانية وقتا طويلا، حيث أصبح يتمّ بوسائل تقنية، "وفتح المجال للعلماء لإنتاج أجنّة متعددة ومتطابقة يطلق عليها اسم نسخ جينية، يمكن إعطاؤها لسيدات يتم تأجيرهن "(الحفار، 1984، صفحة 88)

إنّ تطبيق الإخصاب الاصطناعي عرف بداية منزلق أخلاقي، قد يؤدي إلى قلب الموازين والقيم في المجتمع، وهو ما جعل بول "رامزي" يقول: "إنّنا في اللحظة التي نسمح فيها بإجراء عملية حمل خارج الرحم، أو إخصاب خارج الرحم لأي

زوجين، فإنّنا نكون قد قبلنا مسبقا من حيث المبدأ إمكانية حدوث سلسلة متوالية من السلوك اللاإنساني، لأنّ العملية ستجبرنا على أن نتقدّم خطوات أخرى لا نعرف عواقبها." (نيلسون.، 2005، صفحة 162).

إنّ أهم اعتراض وجه للإخصاب خارج الرّحم هو أنّه أعتبر عملية غير إنسانية، وغير طبيعية، لافتقاده الجانب الأخلاقي، ولعل أبرز الأمثلة التي ستواجه عملية الإخصاب الاصطناعي هي:

هل ستقوم الدولة بتربية هؤلاء الأطفال؟ وهل ما ستنتجه الهندسة الوراثية يكون بديلا للأسرة؟ وما هو مصير الأطفال؟ هل سيوزعون على عائلات مختلفة لتربيتهم؟ وما هي تأثيرات ذلك على تطلعات الوالدين بالنسبة لأولادهم؟؟

دون أي شك، سنكون أمام أسرة مفككة متكونة من مجموعة أفراد التقنية الحيوية تنقصها الروابط الشرعية والأخلاقية، فيزداد الأمر تعقيدا إذا استطاع العلماء من خلق نسخ للأفراد عن طريق الاستنساخ البشري، ومنها سيتعدى مجال الفرد إلى الأسرة، بل وقد تتعدد التساؤلات المذهلة؛ منها: ماذا لو كان للأب نسخة؟ وللأم نسخة؟ فكيف تكون نظرتهما إلى النسخة الأصلية؟ وماذا لو استبدل أحدهما بالآخر؟

1.5 قدسية الأمومة: لم يبق للأسرة المعاصرة في ظل الثورة البيولوجية نفس النظرة التي كانت تتمتع بها في ظل النظرة التقليدية، وإلاّ ماذا سيبقى للأم من مكانة، "إذا أصبح في مقدور العلماء حضانة طفل في أنبوب اختبار، فإنّ دور الأم الأساسي سيزول، وسيخرج الجنين من أحشائها الحيوية إلى أحشاء الآلة التقنية..." (الحفار، 1984، صفحة 100)

عندما يكون التساؤل أين أمي؟؟ فالأمومة ليست نوعا من شقشقة اللسان، بل قدسية نبعت بنفسها من صميم الحياة، فعملية الإخصاب خارج

الرّحم هي عملية تتم بين الزوج والزوجة فهي بذلك لا تثير مسائل أخلاقية، لكن ماذا لو تدخل طرف ثالث في الموضوع؟ سواء أكان متطوعا(بالسائل المنوي)، أو متطوعة بالحمل (كالأم البديلة)، وهنا تصبح المسألة أخلاقية بعينها، فهل سيتقبلها المجتمع؟، مبدئيا يرفض العديد من العلماء دخول طرف ثالث في عملية الإخصاب خارج الرّحم لخوفهم من تحوّل العملية إلى تجارة أو سوق للرّبح، إلاّ أنّ بعض العلماء لم يترددوا للإجابة على هذا السؤال قائلين: « فقد كان للناس منذ القدم موقف مماثل مما يمكن أن يطلق عليه "تأجير الجسد"، حيث كان الكثيرون، ولا يزالون يشعرون أنّ المرأة التي تبيع جسدها، سواء من أجل الجنس أو الحضانة، إنّما تقع تحت وطأة الخطأ الأخلاقي... (البقصيمي، 1993، صفحة 166)

إنّ رفض مثل هذه الممارسة يبرره تعارضه مع مفهوم الأسرة، وهو مفهوم يقر علينا أنّ لا نتلاعب بالحياة دون مبرر قوي، فماذا لو كان الأمر ماديا تجاريا بحتا مثلما أعلنته احدى الأمهات البديلات "السيّدة كوتن"، حين وافقت على عملية استئجار رحمها من أجل الحصول على المال لتغيير ستائر وأثاث منزلها، فمثل ما قامت به هذه المرأة كمثل التي استخدمت "الجسد" للدعارة، أو استخدمته لمكاسب مادية أخرى كاستخدام الجسد للرياضة أو أعمال يدوية كحمل الأشياء أو نقلها.

الأمومة تتوقف على العلاقات التي تربط الطفل بأمه، ومجرّد إلغائها سيؤثر سلبا على مكونات الأسرة خصوصا، والمجتمع عموما، وكيف سيواجه الإنسان المستقبل خاصة عندما يكون بصدد شرح معنى الأمومة لأطفال المستقبل، الذين يفتقدون إلى هذه الأمومة، إلى هذا الفضاء الوجداني، إلى هذه العاطفة، إضافة إلى المركز الذي سيحتله هذا الطفل في المجتمع، بداية من تحديد مكانته الاجتماعية، ومن سيرث؟ ومن سيورثهم بدوره؟ ومن سيقدّم له العناية والتربية؟،

وماذا عن حقوقه الطبيعية؟ والأخطر هو كيف سيحدد هويته؟ فهو بين أطراف متعددة؟ بين بويضة مجهولة؟ وحيوان منوي غريب؟ ورحم مستأجر؟ وتلقيح مصطنع؟ وأبوين غريبين عن كل الفاعلين لمسرحية... أطرافها لا علاقة لهم به، "...ثمّ إذا عرف الطفل بأهمية البيولوجي أو بطريقة مجيئه إلى هذا العالم، ألا يتوزّع ولاؤه بين أكثر من طرف؟ ألا يتساءل عما إذا كان الآخرون يخدعونه أم لا؟" (البقصيمي، 1993، صفحة 169) أليس ذلك حقا طبيعيا في أن يعرف أصله البيولوجي؟؟

لكن ماذا لو تمّ النظر إلى المسالة من جانب آخر، أي من خلال ما سبق طرحه من الأسئلة وفي الحق الطبيعي كما سبق ذكره، فماذا لو تمعنا فيما ينصب إليه العالم **"شبنجلر"** وحاورنا الطفل نفسه: «فلو أنّنا أعطينا ما نسميه " طفلا بالقوّة" حقا للاختيار، وقلنا له أنّه مخيّر بين أن يولد في أسرة لا ينتمي إليها بيولوجيا وبالتالي قد يصيبه الضرر، ومن عدم معرفته بذلك، وبين ألا يولد، فهو يمكن أن يختار البديل الثاني؟ " (البقصيمي، 1993، صفحة 170)، فلا شك أنّ رغبة الإنسان في أن يعيش، سيقبل العيش بالرّغم من كل الأضرار التي قد تصيبه بمعرفة أصوله أو عدم معرفتها، "...في كل الأحوال مسألة الهوية وفق دلالتها السيكولوجية نتاج تطور الفرد في مسار وجوده، لأنّها تأخذ في الحسبان نسقا منتظما ومتدرجا لمجموعة من الثوابت المعرفية والعاطفية.." (التريكي، 2010، صفحة 44)، وهو الأمر الذي أكدته لجنة "ورنك" حين رفضت الإخصاب خارج الرّحم لأنّ ذلك في نظرها يحدث خللا في المجتمع يصل إلى حد انهياره، وجاء في التقرير:« إنّ القضايا الأخلاقية لا تعرف بناء على حساب النتاج المترتبة عليها، وإنّما تقوم أيضا على الجانب العاطفي والمشاعر القوية المرتبطة بطبيعة السلوك الأخلاقي، ولذلك فنحن مجبورون على الأخذ في الاعتبار تلك المشاعر المطروحة،

وسيكون من غير المجدي أن نتظاهر بأنّه لا يوجد اختلاف كبير بين المشاعر الأخلاقية المختلفة، وأن الشيء المشترك بين الناس هو أنّهم عموما، يريدون الوصول إلى معرفة بعض المبادئ التي يمكن من خلالها التحكّم بتطورات واستخدام التكنولوجيا الحديثة، ولذلك لا بد من وجود بعض الحواجز أو الموانع التي يجب أن نخترقها، أي بعض الحدود الثابتة، التي يمكن أن تمنع انتشار أي نزوة أو رغبة تخص هذا الموضوع، فوجود الأخلاق يعتمد على هذه الحواجز، وأنّ مجتمعا لا يملك مثل هذه الحدود، وخصوصا في مجالات مثل المواليد والوفيات، وتكون الأسر، وقيمة حياة الإنسان، سيكون مجتمعا بلا شكوك أو تساؤلات أخلاقية، وهذا ما لا يريده أي شخص.." (البقصيمي، 1993، الصفحات 173-174)

إنّ الأسرة في ظل الثورة البيولوجية ستعرف تزحزحا كبيرا، فالصيرورة التي كانت تعرفها بالمفهوم التقليدي في المحافظة على الحياة عبر أجيال متواصلة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكذلك الانتظام المتواصل بين الأجيال في الشعور بالانتماء ووحدة الهوية، وأصبح ذلك كلّه مسلمة لا تقبل المناقشة أو الجدل فيها، لكن ذلك سرعان ما تحوّل في ظل الثورة البيوتكنولوجية إلى مجرّد أفكار أو ذكريات من الماضي.

وما يجب التسليم به هو أن الأسرة تمّ تمزيقها وتحطيمها، في الوقت الذي أصبح للطفل أكثر من والد، وهو ما عبّر عنه "ليدنبرج" في كتابه (التحول المقبل في العالم): أن الأسرة تقترب من نقطة الانقراض التام بفعل منجزات التغير والجدّة في نطاق تحسين النسل وهندسة الوراثة.." (الحفار، 1984، صفحة 99)، وفي نفس الاتجاه يرى "وولف" "...أنّ الأسرة قد ماتت بالفعل فيما عدا العام الأول أو العامين الأوليين من تنشئة الطفل، ويعتقد غيرهما بأنّ الأسرة تسرع نحو التمزّق والانقراض في الوقت الذي يعتقد فيه بعض المتفائلين أنّ منجزات الثورة

البيوتكنولوجية لن تؤدي إلى تمزّق الأسرة وانعدام مفهومها، بل على العكس يعتقدون أنّ الأسرة مقبلة على عصر ذهبي.." (الحفار، 1984، صفحة 99)

إنّ التجاذب الموجود بين المتشائمين والمتفائلين يجب أن يعود بنا إلى واقع الأمر، أي الكلام عن الأسرة بمنطق القرن الواحد والعشرين، وبأعين البيوتكنولوجيا والهندسة الوراثية، وما حققته في " تكنولوجيا الإنجاب الجديدة" التي أصبح فيها بإمكان العلماء التحكم في جنس المولود، والقدرة على تصميم ذكائه وملامحه وحظوظ شخصيته، على أنّها أصبحت أمورا واردة، وحتى إمكانية إنجاب أطفال بالعدد الذي يطلبه صاحبه (أطفال بالطلب)، ويصبح المولود سلعة تباع وتشترى، فقد تبدو المسألة أنّها ضرب من الخيال، لكن واقع البيوتكنولوجيا المعاصرة وتكنولوجيا الإنجاب الجديدة تجعل من ذلك أمرا ممكنا، ولما لا أنّها ستذهلنا أكثر من ذلك؟ وهو " إنجاب دون جنس" و"جنس دون إنجاب"، ولما لا مصانع لإنجاب الأطفال؟ وعندها سيتجدد السؤال: ما مصير الأمومة؟ إذا كان وليد الأم ليس ابنها في الحقيقة، وإنّما هو نتاج بويضة ذات خصائص وراثية أعلى زرعت في رحمها بعدما أخذت من رحم امرأة أخرى..." (الحفار، 1984، صفحة 100)

إنّ الحالات السابقة قد تفتح مجالات جديدة يتجاذب فيها علماء الأخلاق وفقهاء القانون، بداية: بضرورة تحديد الوالدين؟ وبالنسبة للأم الطبيعية، والأم البيولوجية، أيهما الأم الحقيقية؟؟ وأكثر من ذلك: ماذا لو اشترى زوجان جنينا مخصبا؟؟ فالوالدية تصبح إشكالا قانونيا وليس بيولوجيا.

إنّ الألفية الثالثة تفرض علينا التفكير ملياً في مستقبل الثورة البيوتكنولوجية بنفس منطق إنسان مجتمع ما فوق التصنيع، وهو عصر السرعة في جميع المجالات، الصناعية الاجتماعية، والبيولوجية التي تطلعنا في كل يوم على

نماذج جديدة، وهنا نطرح السؤال: هل سيعرف المجتمع الإنساني كذلك نماذج جديدة للأسرة، بديلة للأسرة التقليدية؟

إنّ "الأسرة البيوتكنولوجية" تبعث بالتفكير والتساؤل أنّه لم يعد من الضروري إنجاب الأطفال في سنّ مبكرة كما كان الأمر في الأسرة التقليدية، ومستقبلا بعد التقاعد يستطيع الإنسان طلب ما يحتاجه من أجنّة لأنّها تكون جاهزة، فقد يتأخر الإنجاب عند الشباب ليصبح الأشخاص الأكثر من الستين سنة هم أكثر الأزواج تنشئة للأطفال، فمنطق المستقبل سيكون: التعامل مع الجديد واللامتوقع في ظل سرعة التغير والتنوع.

6. خاتمة:

كخلاصة لمحاولة بحثنا هذا نكون قد وضعنا صورة لمفهوم الأسرة، و كذلك جانبا من البيوتكنولوجيا، و بعض أهم ممارساتها التقنية دون التطرق إلى الآليات التي تتحكم فيها، وهو الأمر الذي أطلعنا على تلك التجاوزات الكبرى التي ألحقت بالحياة الإنسانية عموما والأسرة خصوصا، فالضرورة تقتضي إيجاد إطار أخلاقي لاحتواء تلك الممارسات البيو تقنية، أو أخلاق جديدة، عرفت بالبيوإيتيقا، والتي جاءت مواكبة لروح العصر، ثم ما خلصنا إليه هو، أن مفهوم القيمة لا يمكن حصره في مجال معرفي مخصوص (الحق، الجمال والأخلاق) بل يجب تمديد هذا المفهوم ليشمل عناصر الوجود كلها، ومنها ما يتعلق بالإنسان في جانبه المادي (الجسد)، الذي أطلعنا تطور البيوتكنولوجيا أنه يمثل جزءا كبيرا من مفهوم الأسرة و قدسيتها ، ومفهوم القيمة، وهي كلها مفاهيم كانت حكرا على الفلسفة والدين. لكن الخلل يكمن في هيمنة ابستيمولوجيا الفصل التي هيمنت على التنظيرات المعرفية والقيمية التي ألحقتها بها النظرة الوضعية المادية.

لذلك توجهنا يذهب إلى ضرورة إعادة الصلة الممزقة بين الأخلاق والبيوتكنولوجيا المعاصرة باعتبارهما يمثلان الإطار الجامع الذي تجتمع فيه كل

معاني الحياة، بما في ذلك الأسرة ومكوناتها وامتداداتها، والتي اهتمت البيولوجيا بها، في شقها المادي، والأخلاق باعتبارها المسلك الروحي للإنسان في جانبه المعنوي.

إن استنادنا إلى الفيلسوف "يورغان هابرماس" باعتباره يمثل توجها فلسفيا رائدا لفلاسفة "ما بعد الحداثة"، إضافة إلى بعض رواد فلسفة البيوتكنولوجيا على غرار "فرانسوا داغونيي" و"هانس يوناس" وغيرهم، فرؤيته (هابرماس) الغرض منها هو إخراج المسألة من جانب التنظير إلى مجال الممارسات التطبيقية، انطلاقا من: وضع برامج تعليمية في المناهج الدراسية، وذلك بمعرفة البيوتكنولوجيا وحقيقتها، وكذلك أهم التقنيات البيوتكنولوجية، ليصل الأمر إلى أعلى مستوى البحث العلمي، وموازاة لذلك يجب أن يتشبع الباحث بمبادئ القيم الأخلاقية والدينية ليحافظ من خلالها على معالم هويته الثقافية والحضارية.

ونقول في الأخير أن خوف العلماء على علمهم، والأسرة والمجتمع على أفرادهما، يعد حقا مشروعا وهو موقف يتطلب ضوابط عقلية، شرعية، قانونية وعلمية، قد يكون مفتاح حلها عند مثل هكذا مناقشات أو عند كبار الفلاسفة والعلماء والباحثين مستقبلا.

7. قائمة المراجع :

Leon. R. Kass. .(2007) *Science* religion and human futur. Washington: A. E .I Washington.

أحمد عبادي. (2012). سؤال الأخلاق والقيم في عالمنا المعاصر. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر

جاكلين روس. (2001). الفكر الأخلاقي المعاصر. (عادل العوا، المترجمون) بيروت: عويدات للنشر والطباعة.

حسن مصدق. (2004). يورغان هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية (الإصدار ط1). المغرب: المركز العربي.

سعيد محمد الحفار. (1984). البيولوجيا ومصير الإنسان. الكويت: الجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

عبد اللطيف الشقوري. (15 مارس، 2000). العولمة ورهان البيوتيقا. مجلة فكر ونقد، صفحة 32.

عبد الوهاب المسيري. (2001). الصهيونية والنازية ونهاية العالم. القاهرة: دار الشروق.

علي حرب. (2005). حديث النهايات، فتوحات العولمة ومازق الهوية (الإصدار ط1). المغرب: المركز الثقافي العربي.

عمر بوفتاس. (2001). الأخلاقيات الجديدة في مواجهة تجاوزات البيوتكنولوجيا. الرباط: إفريقيا- الشرق- المغرب.

فتحي التريكي. (2010). الهوية ورهاناتها (الإصدار ط1). (نور الدين السلفي، المترجمون) الرباط: الدار المتوسطية للنشر.

فتحي المسكيني. (2005). الفيلسوف والامبراطورية في تنوير الإنسان الأخير (الإصدار ط1). المغرب: المركز العربي.

فرانسيس فوكوياما. (2002). نهاية الإنسان، عواقب الثورة البيوتقنية (الإصدار ط1). القاهرة: اصدارات ستور.

محمد شوقي الزين. (15 الرابع، 2002). جدلية العلم والفلسفة، نقد لمقال الفلسفة تدور في الفراغ. مجلة كتابات معاصرة، صفحة 119.

ناهدة البقصيمي. (1993). الهندسة الوراثية والأخلاق. الكويت: المجلس الوطني الوطني للثقافة والفنون والآداب.

نيلسون. (2005). الطب الإنساني. (ناهدة البقصيمي، المترجمون) الكويت: المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب.

يورغان هابرماس. (1995). القول الفلسفي للحداثة (الإصدار ط1). (فاطمة الجيوشي، المترجمون) دمشق: وزارة الثقافة.

يورغان هابرماس. (1999). التقنة والعلم كإديولوجيا (الإصدار ط1). (إلياس حجوج، المترجمون) دمشق: وزارة الثقافة.

يورغان هابرماس. (2010). مستقبل الطبيعة البشرية، نحو نسالة ليبيرالية (الإصدار ط1). (جورج كتورة، المترجمون) بيروت: المكتبة الشرقية.